

٣ - من ذكرى ما في بمرور النوبة :

في جنح الليل !

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

—•••••—

ألفت بنا الباخرة إلى مرفأ عنيبة ، وسط ضجيج الحالمين ،
وصيحات الركاب ، وضوضاء البحارة ، الذين شرعوا بمساعدة
الحالمين ينزلون أمتعتنا ، وأمتة فضيلة قاضي عنيبة المنقول من إسنا
إلى هذه البلدة النائية ، والبضائع الكثيرة المرسلة إلى المدرسة
من خضر ، وفاكهة ، وبعض الملب والصفائح المليئة بالسللى
وغيره ، مما لا يكاد يوجد منه شيء في عنيبة ، ويجلبه المتعهدون
من أسوان وغيرها من بلاد الصعيد الوفيرة الخيرات ..

ولم نجد في الحالمين شهامة رنجدة ، ونشاطاً وإسراعاً إلينا ،
كما نجد هذا في بحالى القاهرة أو مديريات الوجه البحرى ، وبمض
مديريات الصعيد مما يلي القاهرة ، حتى ليهرع إليك عدد من
الحالمين قد لا يكون إليك حاجة بهم ، ومع هذا يكاد كل منهم
أن ينتزع أمتك منك ، ويحملها عنك ... وإنما وجدنا فيهم
تباطؤاً وكسلاً ، وتوانياً ، جعلنا نصرخ فيهم ، ونشتد معهم في
الماملة ، ونقسو عليهم في القول ، وهم يتهربون ، ويتسللون لوأذاً ،
وكأنما يريد أن نستلهم استئلالاً ، وأخيراً قالوا لنا : دعوا
أمتك ، واذهبوا إلى المدرسة ، وسنوافيكم بمد مدة ، عندما
ترحل الباخرة .. !!

ونظر بعضنا إلى بعض نظرات ملؤها الدهش والمجب ،
والحيرة والارتباك ، إذ كيف ندع أمتتنا على الشاطئ بين فئة
لا ندرى من أمرها شيئاً ؟ وكأنما زاد غناؤنا ظلام الليل ، الذى
لم نجد منه أضواء الباخرة شيئاً ، بل كانت هذه الأضواء مع قوتها
ضعيفة واهنة ، وكأنها أشعة خافتة لنجم كليل أو كانت أمواج
الليل الصاخب ، تضطرب في عنف ، وترتفع إلى حيث تقف مع
الجموع المستقبلة للباخرة وتقبل منا الأقدام ، في ثورة خائفة ،
وغيظ صارخ ، فتبلل أحيدينا ، ولكننا من فرط ما نحس فيه من
دهشة وعجب واستغراب ، لا تكاد نشعر بهذه الأمواء ، ولا نحس
لها أثرًا !

وضاقت صدورنا . لأننا وقد أمتقتنا هذه الأحوال والأمتة ،
لا نجد من يسرع في حملها حيث تريد .. ونظلمنا حوالينا ، فلم
نجد إلا النيل شرقاً ، رحباً تحيماً ، والجبال غرباً ، بشيخها المظلم
القاتم ، وكأنها حرائر علينا ، تشرع في وجوهنا أسلحة لانطيق
لها صبراً ، ولا عليها احتمالاً ، فيقتينا هكذا مدة ، ثم عارض
بعضنا في هذا ، وسكت البمض الآخر مقتنماً بهذه المعارضة ،
ولكننا في النهاية لم نجد مناسباً من الرضوخ لهذه الرغبة ، والنزول
على هذه الإرادة مسكرهين ، فلقد أجهت إلينا الأنظار متمجبة
دهشة ، وكأنها تقول : علام التشكك والارتباك ، وعلام الخوف
والاضطراب وهذه البلاد لا موضع فيها لخائن الأمانة ، أو ناكث
للمهد ، أو خافر للذمة !! وكأنما كانت هذه النظرات ألسنة
ناطقة ، لا نظرات صامتة ، فسرعان ما شمرنا جيمعاً بالتخاذل
والحجل ، ومضينا إلى حيث تريد ..

سمرنا على الميناء متجهين إلى المدرسة كما أشار لنا بعض
الواقفين ، وميناء عنيبة جسر ممدود إلى داخل النيل ، نهايته على
الشاطئ الأسمى للنيل ، فإذا جاء الفيضان ، وارتفعت مياه النيل
خلف الخزان في نوفمبر تقريباً من كل عام ، وجدت الميناء عبارة
عن لسان طويل جداً ، ممدود حوالى ثلاثمائة متر ، وعرضه
متران تقريباً ، فإذا ما زاد الفيضان ، غمر هذا اللسان ، ودرست
البواخر على الشاطئ الجديد ، الذى يظل الماء عنده إلى أوائل
مايو ، ثم يأخذ في الانحسار طرقة أخرى حتى يصل إلى الشاطئ
القديم ، فيضيق النيل كثيراً . وحول الميناء شاهدنا بضع
عوامات ، وعلمنا أنها كلها تابعة لوزارة الأشغال (مصلحة الميكانيكا
والكهربا) ، وأن منها ما يستعمل كـ (عنبر) صغير به مضخات
لرفع مياه الشرب من النيل إلى محطة الطلبات الخاصة بهذه
العملية في مستعمرة عنيبة . ومنها ما يستعمل كمنازل صغيرة لتسير
التزوجين ، ومنها ما يستعمل للصيانة ، فيكون أشبه بمصنع صغير
متنقل ، وهذا لا يرسو في عنيبة دائماً ، وإنما ينتقل بين محطات
المركز كبلانة والدكة وغير ذلك .

كان الظلام حالكا ، والسكون شاملاً ، ولم يكن هناك
أثر لشعاع من النور ، وخاصة وقد صفرت الباخرة ، وأطفأت
مصايحها الأمامية (الكشافات) التى لا تضيئها إلا عندما تريد
الإرساء في محاط المركز .. أما عندما تسير فلا تستطيع أن تدير

في الباخرة ما جعله ينكشف في نفسه طوال المدة ، ولا يكاد يضع رجله على الأرض ، خشية أن يناله مكروه ، فبق شارد الطرف ، حائر الفكر ، مضطرب الشمور ، لا تكاد تكلمه حتى تدرك مبلغ ما يعانيه من حيرة وارتباك ... وكان الظلام ناشراً لواءه على المدرسة كذلك ، وكانت هذه المصاييح الهوائية الضئيلة ، تبعث الضوء خافتاً باهتاً ، وكأنها هو خائف مضطرب ، يخشى صولة الظلام القاهر ، ووحشة الليل الخفيف ...

والدرة كما علمنا لا تضاء بهذه المصاييح الهوائية المنتشرة في كل ناحية من نواحيها ، والتي تشتمل بزيت النفط ، بل تضاء بالكهرباء ، فلها مراكب كهربائية خاصة ، إلا أنه يبدو قبيل الغروب من كل يوم ، ويتوقف عن الإدارة في الحادية عشرة مساءً ، إلا إذا دعا الداعي ، لأن يبقى مدة أطول ، ساعة أو ساعتين حسب الحاجة إليه ، بأن أقيمت في المدرسة حفلة للسرور ، أو لتوديع بعض الزرين ، وانتظار الباخرة التي ستقلهم إلى الشلال ، إذ أن ميماد بعض البواخر وهي السريعة ، الواحدة والنصف صباحاً ، أو الثانية أحياناً ، ولكن لا بد للمسافر من أن ينتظرها ابتداء من الثانية عشرة أو قبل ذلك ، فربما تدفعها الريح مسافة تتقدم بها ساعة أو ساعتين !! أقول وفي هذه الظروف تبقى الإنارة حتى تنتهي الحفلات ، أو المناسبات ، ثم تشمل المصاييح على الأثر ..

وما كاد يستقر بنا المقام ، حتى جاء الحالون ، ومعهم أمتعتنا ، يحملونها على الحمار النحيفة المجفء ، فكان هذا دليلاً عملياً ناطقاً بالأمانة الشاملة في هذه البلاد !

عبر الحفيظ أبو السمور

هذه المصاييح ، لأنها بانمكاتها على الماء ، واضطراب صفحة الماء ، تدع الزبان لا يستطيع أن يتبين طريقه ، ولا يعرف كيف يسيرا مضيقاً نضرب في الرمال على غير هدى ، لا تكاد ترفع رجلا حتى تنفوس أخرى ، الأمر الذي أوهن قوانا ، وأضعف عزائمنا ، فقطعتنا المسافة من الينا إلى المدرسة في ساعة ونصف تقريباً ، بينما هي لا تتجاوز الألف متر .

وشمر كل منا بتقصير المدرسة في حقنا ، فكان الواجب . يقضى بأن ترسل في انتظارنا أحد فرائسها ، وهم كثر على ما سمعنا ، كدليل على الأقل يكفيننا مؤنة السؤال عن الطريق وسط هذا الظلام الخائك ، الذي لم يجدنا معه السؤال شيئاً ، إذ أن كل شخص نسأله لا يحرك ساكناً بل يكلمنا في هدوء وسكون وهو جالس دون مبالاة ، مما جعلنا نغلف القول لبعضهم ، وكدنا نتقد أن كل الأهلين على هذا الوضع من الحمول السيب ، والكسل الأليم .

ودفع هذا الوضع الشاذ بعض الزملاء إلى الصراخ وسط هذه الغلاة القائمة ، بألوان من السباب والغيظ ، والنقمة والثورة ، ولكن الصوت كان يتردد صدها في وحشة مرهقة ، وكأنها نحن نسير في مقبرة مهجورة تعبت فيها الجن ، ومردة الشياطين فساداً ، وتنكيلاً بالناس ... !!

وأخيراً وصلنا إلى المدرسة بعدما أرشدنا خفير المستشفى الذي اضطر لتلك اضطراباً حينما كدنا نضل الطريق نهائياً... وفتحت لنا المدرسة أبوابها ، وكنت لا تسمع فيها حركة ولا صوتاً ، على الرغم من نوم التلاميذ ، وكثرة عددهم ، الذي يربى على خمسة تلميذ . واستقبلنا مشرفان فاضلان ، وجدنا في سماحتهما ولطف حديثهما ما هوّن علينا ما قاسينا من مصاعب ، في هذه السفرة الشاقة ، والرحلة الضنية ، وخاصة وأن أكبر مسافة قطعناها قبل أن نقل إلى هذه البلاد ، هي المسافة ما بين القاهرة والإسكندرية ، والتي لا تتجاوز الأربع ساعات ..

وجال معنا المشرفان في ليل في أنحاء المدرسة ، بالقدر الذي يسمح لنا بتعرف ما حولنا ، ورؤية المكان الذي سنبيت فيه ، لنكون على خبر به ، وبينه من أمره وبخاصة ومعنا صبي صغير هو نجل أحد الزملاء ، وقد سمع هذا الصبي عن عقارب عينية

أطلب نسختك

من الطبعة الجديدة من كتاب

تاريخ الأدب العربي

يطلب في فلسطين من مكتبة الطاهر إخوان بيانا